الرجل الذي دخل علينا ونحن بضريح الشيخ المغاوري ثم اتخذ موقفه بين الشمعتين وما كاد يرى صياح النسوة حتى راح يهز رأسه هزاً عنيفاً بطريقة منتظمة ، ثم ينادي بأعلى صوته : الله ، الله ... وبعد برهة كان يلتوي على الأرض التواء الحية الرقطاء وتتقلص عضلات وجهه ، ويرسل صراخا كالنباح ثم يهتف قائلاً : الله أكبر ! الله أكبر ! حتى خيل إلينا أن صخور المقبرة أوشكت أن تلتقط منه لفظ الجلالة . وكدت أفقد رشدي من هول الموقف ، وأحسست كأن حشرجة الموت تنشب مخالبها في حلقي ، فأردت أن أستنجد بكل قواي غير أني لم أستطع إلى ذلك سبيلا ، فجاهدت قدر طاقتي حتى لا أسقط عن مقعدي ، ولكن بلا جدوى أيضاً لأني شعرت كأن بي مسا من الجن ، وأن كابوساً قد جثم فوق صدري ، وأن العرق البارد يتحلب من وجهي . وأخيراً هدأت نفسي فغادرت المكان وهتفت بصديقي أدعوه إلى الصلاة . ولكنه أجابني بعدم قدرته على أدائها وهو لا يزال يرجف فزعا . فتركته ومضيت إلى القبلة ، حيث عادت إلى طمأنينتي الأولى . وبعد الصلاة رحت أفتش عن صديقي فإذا به يقف بجوار المحراب باهت اللون ، ينتظرني بفروغ صبر لنغادر هذا المكان الذي كان يرمقه بعيون مفتحة رعباً

وتأوه صديقي ونحن نغادر باب المغارة ، ثم أفضى إليّ بأنه من الصعب أن يشعر بأقل ميل نحو الشرق ، حيث الأضرحة والعقائد القديمة البالية والعادات المرذولة ، ولكن أمه — تلك السيدة الوقور الطيبة الأخلاق — طالما شكت إليّ إيمانه المزعزع واتجاهه نحو الغرب ، وكانت تصلي من أجله عسى الله أن يرشده إلى الطريق السوي ويغفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر

وانطلقنا إلى حديقة المغارة وما كدنا نستقبل الهواء الطلق حتى وقع نظرنا على طائفة من السائحات الأمريكيات وهن يصغين باهتمام إلى شروح بعض التراجمة والأدلاء ، فهتفت بصديقي قائلا :

— هذا هو الغرب الذي تتعشقه

(تمت) عبد الكريم جرمانوس

الفلسفة الشرقية

بحوث تحليلية

بقلم الدكتور محمد غلاب

أستاذ الفلسفة بكلية أصول الدين

— ١٢ —

النفس — أطوارها — التناسخ

رأيت فيما أسلفنا من مستحدثات عهد التطور تلك النظرية الفلسفية العميقة التي تقرر أن الوجود المادي باطل ، ولكنه مشتمل في داخله على جوهر سام هو وحدة الحقيقة في كل موجود ، ورأيت كذلك أن هذه النظرية لم تقتصر على كائن في الوجود دون كائن ، فهي قد تناولت الآلهة والأناس والحيوان والنبات ، غير أن أهم ما يعني الباحث في هذا الجوهر الحق المختبئ وراء الأستار المادية إنما هو النفس

وقد عني خاصة الهنود بها عناية شديدة منذ أقدم عهودهم بالتفكير ، فقرروا أنها هي الجوهر الحق في الانسان ؛ ولذلك أطلقوا عليها اسم الانسان لأنهم اعتبروا الجسم بدونها باطلاً لا يستحق أن يدل على الانسان كما تدل عليه النفس . ولا شك أن الباحث حين يتأمل في هذه النظرية للوهلة الأولى يلمح فيها عناصر نظرية « أفلاطون » في النفس والمادة حيث يقرر أن النفس هي وحدها النور الخالد والحق الأسمى في الانسان ، أما الجثمان المادي فانه خيال باطل لا تطلق عليه كلمة « حقيقة » إلا تجوزاً ، لحلول النفس فيه ولصوغه على نماذج المثل التي أبنا أن عناصرها مصرية

ويرى فلاسفة الهند أن النفس جاهلة بالفعل عالمة بالقوة ، وأن الجهل والعلم صفتان متعاقبتان عليها باختلاف الظروف والأحوال . ولا جرم أن الهنود قد سبقوا « أرسطو » بعدة قرون الى نظرية جهل النفس بالفعل وعلمها بالقوة وفوزها بالعلم الفعلي عن طريق الكسب والتجربة ، تلك النظرية التي بسطها أرسطو بسطاً واضحاً حين رد على أفلاطون القائل بأن النفس كانت عالمة بالفعل قبل أن تحل في الأجسام المادية ثم نسيت

تلك المعارف بعد حلولها فى المادة الكثيفة ، وهى الآن لا تتعلم شيئاً جديداً ، وإنما تتذكر ما كانت قد تعلمته فى الماضى ثم نسيته

والنفس عند الهنود خالدة لا يعتورها الفناء ، لأنها هى كل ما فى الانسان من حقيقة كما أسلفنا ، ولهذا فهم لا يعتبرون الموت أكثر من تغيير ثياب النفس ومآويها ، إذ أنها هى لا تتعرض بالموت لأى شىء إلا انتقالها من مأوى الى مأوى بما يسمونه التناسخ أو التقمص . وقد أفاضت الكتب الهندية دينية وفلسفية فى هذه العقيدة أو النظرية إفاضة جعلتها كأنها وحى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . وهاك شيئا مما نقله لنا البيرونى خاصا بعقيدة خلود النفس وتقمصها :

قال « باسديو » لـ « أرجن » يحرضه على القتال وهما بين الصفين : « إن كنت بالقضاء السابق مؤمناً فاعلم أنهم ليسوا ولا نحن مما بموتى ولا ذاهبين ذهاباً لا رجوع معه ، فان الأرواح غير مائتة ولا متغيرة ، وإنما تتردد فى الأبدان على تغاير الانسان من الطفولة إلى الشباب والكهولة ثم الشيخوخة التى عقباها موت البدن ثم العود . وقال له : كيف يذكر الموت والقتل من عرف أن النفس أبدية الوجود لا عن ولادة . ولا إلى تلف وعدم ، بل هى ثابتة قائمة لا سيف يقطعها ، ولا نار تحرقها ، ولا ماء يغصها ، ولا ريح تيبسها ، لكنها تنتقل عن بدنها إذا عتق نحو آخر ليس كذلك كما يستبدل البدن اللباس إذا خلق . فما غمك لنفس لا تبيد ، ولو كانت بائدة فأحرى ألا تهتم لمفقود لا يوجد ولا يعود . فان كنت تلمح البدن دونها وتجزع لفساده فكل مولود ميت ، وكل ميت عائد ، وليس لك من كلا الأمرين شىء ، إنما هما إلى الله الذى منه جميع الأمور وإليه تصير » . ولما قال له « أرجن » فى خلال كلامه : « كيف حاربت براهم فى كذا وهو متقدم للعالم سابق للبشر ، وأنت الآن فيما بيننا منهم معلوم الميلاد والسن ؟ » . أجابه قال : « أما قدم العهد فقد عمى وإياك معه ، فكم مرة حيينا حقباً قد عرفت أوقاتها وخفيت عليك ، وكلما رمت المجىء للاصلاح لبست بدناً ، إذ لا وجه للكون مع الناس إلا بالتأنس » . وحكى عن ملك أنسيت اسمه أنه رسم لقومه أن يحرقوا جثته بعد موته فى موضع لم يدفن فيه ميت قط ، وأنهم طلبوا موضعاً لذلك فأعياهم حتى وجدوا صخرة من ماء البحر نائئة فظنوا أنهم ظفروا بالبغية . فقال لهم باسديو : إن هذا الملك قد أحرق على هذه الصخرة مرات كثيرة فافعلوا ما تريدون فانه إنما قصد إعلامكم وقد قضيت حاجته »

وقال باسديو : فمن يؤمل الخلاص ويجتهد فى رفض الدنيا ثم لا يطاوعه قلبه على البتغى أنه يثاب على عمله فى مجامع المثابين ، ولا ينال ما أراد من أجل نقصانه ، ولكنه يعود إلى الدنيا فيؤهل لقالب من جنس مخصوص بالزهادة ويوفقه إلى الالهام القدسى فى القالب الآخر بالتدرج إلى ما كان أراده فى القالب الأول ، ويأخذ قلبه فى مطاوعته ولا يزال يتصفى فى القوالب إلى أن ينال الخلاص على توالى التوالد »[1]

وقال فى كتاب « سانك » : أما من استحق الاعتلاء والثواب فانه يصير كأحد الملائكة مخالطاً للمجامع الروحانية غير محجوب عن التصرف فى السموات والكون مع أهلها أو كأحد أجناس الروحانيين الثمانية . وأما من استحق السفول بالأوزار والآثام ، فانه يصير حيواناً أو نباتاً أو يتردد إلى أن يستحق ثوابا فينجو من الشدة أو يعقل ذاته فيخلى مركبه ويتخلص[2]

قال صاحب كتاب «باتنجل» : إفراد الفكرة فى وحدانية الله يشغل المرء بالشعور بشىء غير ما اشتغل به ، ومن أراد الله أراد الخير لكافة الخلق من غير استثناء واحد بسبب ، ومن اشتغل بنفسه عما سواها لم يصنع لها نَفَساً محذوباً ولا مرسلاً . ومن بلغ هذه الغاية غلبت قوته النفسية على قوته البدنية . فمنح الاقتدار على ثمانية أشياء بحصولها يقع الاستغناء ، فمحال أن يستغنى أحد عما يعجزه واحد . تلك الثمانية هى : التمكن من تلطيف البدن حتى يخفى عن الأعين ؛ والثانى التمكن من تخفيفه حتى يستوى عنده وطء الشوك والوحل والتراب ؛ والثالث التمكن من تعظيمه حتى يراه فى صورة هائلة عجيبة ؛ والرابع التمكن من الارادات ؛ والخامس التمكن من علم ما يروم ؛ والسادس التمكن من الترؤس على أية فرقة طلب ؛ والسابع خضوع المرءوسين وطاعتهم ؛ والثامن انطواء المسافات بينه وبين المقاصد الشاسعة[3]

تقاليد البراهمة

كتب كثير من علماء الفرنجة المحدثين المشتغلين بتاريخ

(١) انظر صفحتى ٢٥ و ٢٦ من كتاب البيرونى
(٢) انظر صفحة ٣٢ من كتاب البيرونى
(٣) انظر صفحة ٣٤ من الكتاب المذكور

الفلسفة حول تقاليد البراهمة وطقوسهم الدينية ، فهممت بأن ألخص لك هنا ترجمة ما كتبوه من هذه التقاليد على نحو ما فعلت فى النطقوس المصرية ، ولكنى وجدت ما كتبه أولئك العلماء ليس إلا هيكلا عظمياً إلى جانب ما نقله أبو الريحان البيرونى عن هذه التقاليد ، فلم يسعنى إلا العدول عن الناقص إلى الكامل أو القريب من الكمال . وكنت أحب أن ألخص هذا النص فى عبارات من عندى لكى لا أكثر من النقل عن الغير ، ولكن ضرورة الاصطلاحات الفنية من جهة وخلو كلام البيرونى من الحشو فى هذه النقطة من جهة أخرى قد ألجآنى إلى الاتيان بالنص لتحقق الفائدة المرجوة . وهاك ما قاله البيرونى عن هذه التقاليد :

عمر « البرهمن » بعد مضى سبع سنين منه منقسم لأربعة أقسام : فأول القسم الأول هو السنة الثامنة يجتمع إليه البراهمة لتنبيهه وتعريفه الواجبات عليه وتوصيته بالتزامها واعتناقها مادام حياً ثم يشدون وسطه بزنار ويقلدونه زوجا من « جنجوى » وهو خيط مفتول من تسع قوى ، وفرد ثالث ممعول من ثوب يأخذه من عاتقه الأيسر إلى جانبه الأيمن ويعطى قضيباً يمسكه وخاتم حشيشة يسمى « دَرْبهى » يتختم به فى البنصر اليمنى ، ويسمى هذا الخاتم : « بِيتر » والغرض فيه التيمن والبركة فى عطاياه من تلك اليد ، والتشديد فيه دون التشديد فى أمر « جنجوى » فان جنجوى مما لا يفارقه ألبتة ، فان وضعه حتى أكل أو قضى حاجته خالياً عنه ، كان بذلك مذنباً لا يمحصه عنه غير الكفارة بصوم أو صدقة . وقد دخل فى القسم الأول إلى السنة الخامسة والعشرين من سنيه ، ووجدت ذلك فى « بشن بران » إلى السنة الثامنة والأربعين . والذى يجب عليه فيها هو أن يتزهد ويجعل الأرض وطاءه ويقبل على تعلم « بيذ » وتفسيره وعلم الكلام والشريعة من أستاذ يخدمه آناء ليله ونهاره ، ويغتسل كل يوم ثلاث مرات ، ويقيم قربان النار فى طرفى النهار ، ويسجد لأستاذه بعد القربان ، ويصوم يوما ويفطر يوماً مع الامتناع عن اللحم أصلاً ، ويكون مقامه فى دار الأستاذ ويخرج منها للسؤال والكدية من خمسة بيوت فقط كل يوم مرة عند الظهيرة أو المساء ، فما وجد من صدقة وضعه بين يدى أستاذه ، ليتخير منه ما يريد ثم يأذن له فى الباقى فيتقوت بما فضل منه ويحمل إلى النار حطبها من شجرتى : « بلاس » و « دوب »

لعمل القربان ؛ فالنار عندهم معظمة وبالأنوار مقترنة ، وكذلك عند سائر الأمم فقد كانوا يرون تقبل القربان بنزول النار عليه ولم يشهم عنها عبادة أصنام أو كواكب أو بقر وحمير أو صور

وأما القسم الثانى فهو من السنة الخامسة والعشرين إلى الخمسين ، وفى « بشن بران » بدل هذه الخمسين سبعون ، وفيه يأذن له الأستاذ فى التأهل فيتزوج ويقيم « الكذخداهية » ، ويقصد النسل ، على ألا يطأ امرأته فى الشهر أكثر من مرة عقب تطهر المرأة من الحيض ، ولا يجوز له أن يتزوج بامرأة قد جاوز سنها اثنتى عشرة سنة ، ويكون معاشه إما من تعليم « البراهمة وكشتر » وما يصل إليه منه فعلى وجه الاكرام لا على وجه الأجرة ، وإما من هدية تهدى إليه بسبب ما يعمل لغيره من قرابين النار ، وإما بسؤال من الملوك والكبار من غير إلحاح منه فى الطلب أو كراهة من المعطى فلا يزال يكون فى دور هؤلاء (برهمن) يقيم فيها أمور الدين وأعمال الخير ، ويلقب : « بِرْهِتُ » ، وإما من شىء يجتنيه من الشجر أو يلتقطه من الأرض ، ويجوز أن يضرب يده فى التجارة بالثياب وبالفوفل ، وإن لم يتولها واتجر له « بيش » كان أفضل ، لأن التجارة فى الأصل محظورة بسبب ما يداخلها من الغش والكذب ، وإنما رخص فيها للضرورة ، إذ لا بد منها ، وليس يلزم البرهمن للملوك ما يلزم غيره لهم من الضرائب والوظائف . فأما التتابع بالدواب والبقر والأصباغ والانتفاع بالربا فانه محرم عليه ، وصبغ النيل من بين الأصباغ نجس ، وإذا مس جسده وجب عليه الاغتسال ولا يزال يقلس ويقرأ على النار ما هو مرسوم لها

وأما القسم الثالث ، فهو من السنة الخمسين إلى الخامسة والسبعين ، وفى « بشن » بدل الخمسة والسبعين تسعون ، وفى هذا القسم يتزهد ويخرج من الكذخداهية ويسلمها والزوجة إلى أولاده إن لم تصحبه إلى الأسحار ، ويستمر خارج العمران على السيرة التى سارها فى القسم الأول ، ولا يستكن بسقف ولا يلبس إلا ما يوارى سوءته من لحاء الشجر ، ولا ينام إلا على الأرض بغير وطاء ، ولا يتغذى إلا بالثمار وبالنبات وأصوله ، ويطول الشعر ولا يتدهن

وأما القسم الرابع فهو إلى آخر العمر يلبس فيه لباساً أحمر ويأخذ بيده قضيباً ويقبل على الفكرة وتجريد القلب من

الصداقات والمداوات ، ورفض الشهوة والحرص والغضب ، ولا يصاحب أحداً ألبتة ، فان قصد موضعاً ذا فضل طالباً للثواب لم يقم فى طريقه فى قرية أكثر من يوم ، وفى بلد أكثر من خمسة أيام ، وإن دفع أحد إليه شيئاً لم يترك منه للغد بقية ، ولم يكن له غير الدؤوب على شرائط الطريق المؤدى إلى الخلاص والوصول إلى « موكش » الذى لا رجوع فيه إلى الدنيا

وأما ما يلزمه فى جميع عمره بالعموم فهو من أعمال البر وإعطاء الصدقة وأخذها ، فان ما يعطى البراهمة راجع إلى الآباء ودوام القراءة وعمل القرابين والقيام على نار يوقدها ويقرب لها ويخدمها ويحفظها من الانطفاء ليحرق بها بعد موته ، واسمها « هوم » ، والاغتسال كل يوم ثلاث مرات فى سند الطلوع وهو الفجر ، وفى سند الغروب وهو الشفق ، وفى نصف النهار بينهما ، أما بالغداة فمن أجل نوم الليل واسترخاء المنافذ فيه فيكون طهراً من كائن النجاسة واستعداداً للصلاة ، والصلاة هى تسبيح وتمجيد وسجدة برسمهم على الابهامين من الراحتين الملتصقتين نحو الشمس فانها القبلة أينما كانت خلا الجنوب ، فليس يعمل شيء من أعمال الخير نحو هذه الجهة ، ولا يتقدم إليها إلا فى كل شيء ردىء . وأما وقت زوال الشمس عن نصف النهار فانه مرشح لاكتساب الأجر ، فيجب أن يكون فيه طاهراً ، والمساء وقت العشاء والصلاة ، ويجوز أن يفعلهما فيه من غير اغتسال ، فليس أمر الاغتسال الثالث مثل الأول والثانى فى التأكد ، وإنما الاغتسال الواجب عليه بالليل وفى أوقات الكسوفات بسبب إقامة شرائطها وقرابينها . ويتغذى البرهمن فى جميع عمره فى اليوم مرتين عند الظهيرة والعتمة ، فاذا أراد الطعام ابتدأ بإفراز الصدقة منه لنفر أو نفرين وخاصة للبراهمة المتوحشين الذين يجيئون وقت العصر للسؤال ، فان التغافل عن إطعامهم إثم عظيم ، ثم للبهائم والطير وللنار ويسبح على الباقى ويأكله ، وما فضل منه فيضعه خارج الدار ولا يقرب منه إذ لا يحل له ، وإنما هو لمن سنح واتفق من محتاج إليه ، سواء كان إنساناً أو طائراً أو كلباً أو غيره ، ويجب أن تكون آنية مائه على حدة وإلا كسرت ، وكذلك آلات طعامه . وقد رأيت من البراهمة من جواز مؤاكلة أقاربه فى قصعة واحدة وأنكر ذلك سائرهم[1]

(يتبع) محمد غلاب

(1) انظر صفحات ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ ، ٢٧٠ من كتاب البيرونى

من صور الشارع :

العدالة

للأستاذ أمجد الطرابلسي

الليلُ داجٍ وأعاصيرُهُ ... مجنونةٌ تضحكُ منه الرعودْ
والبرقُ فى آفاقِهِ لاهبٌ ... كشعلةِ الغيظِ بصدرِ الحسودْ
والمطرُ الدَّفّاقُ فى لحنِهِ ... مسترسلٌ يُبدئُهُ أو يُعيدْ
يصافحُ النهرَ فتعلو لهُ ... نمنمةُ نايٍ وأرانينُ عودْ
والشارعُ الجَهْمُ مصابيحُهُ ... كأعينِ الذؤبانِ فوق النجودْ
قفرٌ منَ الناسِ ، فلا سيدٌ ... يخطرُ مختالاً ولا من مَسودْ
إلا عرابيدُ هُنا أو هنا ... كأنما أرجُلُهم فى القيودْ
يبغونَ مَنجى من مُلِثِّ الحيا ... لولا خُمارٌ مُستبِدٌّ عنيدْ
ونام . . . إلا مرقصاً فاجراً ... يقظانَ لا يعرفُ معنى الهجودْ
نهارُهُ الليلُ ، وسمّارُهُ ... كُثْرٌ إذا أغفى الغبيُّ البليدْ
تمزّقُ الدجيةَ أنوارُهُ ... كأنها أنوارُ عُرسٍ وعيدْ
وتطربُ الشارعَ أنغامُهُ ... رنّانةً صخّابةً من بعيدْ
دخلته . . . يا حسنَه منظراً ! ... راحٌ وروحٌ ولحونٌ وغيدْ
من كلّ خَوْدٍ خلقَتْ فتنةً ... لحظاً وقدّاً ونهوداً وجيدْ
وأهوجٍ فى عنفوانِ الصِّبا ... صريعِ كأسٍ أو مُعنّى خدودْ
والناسُ فى رقصٍ وفى نَشوةٍ ... حولَ دُمى الحسنِ قيامٌ قعودْ
ما منهمُ إلا فتى عابثٌ ... ما فيهمُ إلا الضحوكُ السعيدْ
كأنهم فى فرحٍ دائمٍ ... مُذ نزلوا الأرضَ وعيشٍ رغيدْ

* * *

يا شاكياً أوصابَ هذى الدُّنا ... لا زلتَ إلفاً للضنى والجحودْ
أتدّعى البؤسَ وتشكو الورى ... ورهنُ كفّيكَ المنى والسعودْ
أليس فوقَ الأرضِ غيرُ الأسى ... أما ترى عيناك غيرَ اللحودْ
هذى الأغاريدُ وهذا الهوى ... وذلك الحسنُ وتلك القدودْ
وهذه الأقداحُ فوّارةً ... والدلُّ والسحرُ وخفقُ النهودْ
أليسَ فيها ما يَبُلُّ الصدى ... ويُفرِحُ القلبَ المُعنّى العميدْ

* * *